جناية أحمد أمين
على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك

— ٨ —

عرف الناس ما كان من انزعاج الأستاذ أحمد أمين من كلمة الحق، وفهموا أنه تجلد وتصبّر إلى أن عجز عن التجلد والتصبر، وللطاقة الإنسانية حدود

وما كنت أحسب أن الأيام ستقهر الأستاذ أحمد أمين على أن يهددني بأبيات فيها لوثة جاهلية، وهو الذي دعا الأمم العربية إلى وضع آثار الشعر الجاهلي في « متحف » لا يدخله الناس إلا بعد استئذان !

ويعز على والله أن ينزعج الأستاذ أحمد أمين وأن يدّعي أنه تلقى رسائل من مختلف الأقطار العربية فيها سباب موجه إلى من هجم عليه في مجلة (الرسالة) . فهذا الادعاء يشهد بأنه يعجز عن الصدق في بعض الأحيان

لو كان الأستاذ أحمد أمين يعرف عواقب ما يصنع لفهم أن الأمر كان يجب أن يكون بالعكس : فهو يجني على ماضي الأدب العربي بأحكامه الخواطئ، ويحتال لإفهام الجمهور أن أدباء العرب لم يكونوا أصحاب أرواح، وإنما كانوا أصحاب معدات . وأنا أدفع تلك التهم وأصحح ما وقع في كلامه من أغلاط

فمن الذي يستحق اللوم والسباب في هذه القضية ؟

لو فرضنا جدلاً أني أشاغب الأستاذ أحمد أمين لكان من الذوق أن يتلقى العرب هذه المشاغبة بالقبول ، لأن فيها تمجيداً لماضي الأمة العربية

ولو فرضنا جدلاً أن الأستاذ أحمد أمين على حق في السخرية من ماضي الأدب العربي لكان من الطبيعي ألا يستريح العرب إلى ذلك الحق ، لأن الأبناء الأبرار يحسّنون محاسن آبائهم ويتغاضون عما قد يكون فيهم من عيوب

والأمر ليس كذلك في هذه القضية : فالأستاذ أحمد أمين لم يكن في جانب الحق حين قال في الاستهزاء بالأدب العربي ما قال، وأنا كنت وما زلت في جانب الحق حين حكمت بأن الأدب العربي أدب أصيل ، وأنه خليقٌ بالخلود

الأستاذ أحمد أمين يروّح عن نفسه بذلك الادعاء الطريف ليوهم القراء بأن أدباء العرب في مختلف الأقطار قد توجموا له أشد التوجع ، وتعرضوا لخصمه بالشتم والسباب ، كأن أدباء العرب لم يبق لهم مآرب يحرصون عليه غير حماية أحمد أمين من كلمة الحق !

ولنفرض جدلاً أن أدباء العرب جميعاً وقفوا في صف هذا « الأديب » فهل يتوهم أنه سينجو من قلمي حين ينحرف عن الصواب ؟ .

لقد سرني والله أن يتطاول على صاحب « الرسالة » وأن يتهمه بسوء النية في نشر هذه المقالات ؛ فصاحب « الرسالة » قد آذاني أشد الإيذاء حين استباح أن يحذف من المقالات الماضية بعض الفقرات ، ليظل مهذّباً مؤدّباً كصديقه المهذّب المؤدّب أحمد أمين !

كم تلطفتُ وترفقتُ في موطن لا يجوز فيه لطفٌ ولا رفق، ثم كان جزائي أن يقال إن أدباء العرب غضبوا عليّ وسبّوني لأني جهرت بكلمة الحق !

ومع ذلك فما الذي يؤذيكم مني يا أحفاد يعرُب وقحطان ؟

طالما أوقع اليهود قديماً وحديثاً في قتال ونزاع مع الأجناس المجاورة ، وطالما أدى إلى ضياع فائدة اليهود الدنيوية الحقيقية . ولكن حقائق الحياة والضرورة قد تغرى اليهود بقبول الاستيطان في بقعة أخصب من فلسطين وأقل سكاناً وأوسع رقعة . ويمكن إرضاء العاطفة الشعبية بأن يسمي ذلك الوطن الجديد (فلسطين الجديدة) أو (صهيون) وأن ينشئوا فيها مدناً تسمى بأسماء المدن القديمة في فلسطين القديمة . ويمكن إرضاء النزعة الدينية بأن ينقلوا من الأحجار والآثار المقدسة ، ومن تربة أرض فلسطين القديمة إلى فلسطين الجديدة ما يقدس به الهيكل الجديد وما هو ضروري للدفن الديني المقدس . وهذا الحل يجمع بين إرضاء العاطفة وبين الفائدة الاقتصادية

عبد الرحمن شكري

أليس فى مقدوركم أن تحتملوا أديباً جنى على نفسه وعلى معاشه ليرفع راية النقد الأدبى ؟

أليس فى مقدوركم أن تحتملوا أديباً يقتل أعصابه فى أوقات القيظ ليردّ عادية العادين على اللغة العربية ؟

ألا تستطيعون أن تغفروا زلة رجل جهل أخلاق الزمان فاعتصم بالحق والعدل ؟

لقد حدثنى عنكم أحمد أمين بما لا أحب ولا تحبون

فإن كان صدق فيما حكاه فغفر الله لكم ! وإن كان تزيّد فعفا الله عنه !

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل

* * *

أما بعد فقد كان السياق يوجب أن تكون كلمة اليوم فى نقض ما ادعاه أحمد أمين على الأدب الأندلسي من الجمود أمام الطبيعة الماثلة فى تلك البلاد

ولكنى أحببت أن أقف وقفة قصيرة عند إحساس العرب بالطبيعة وبالوجود

يعرف كل من اطلع على كتب الأدب أن الشعراء كانوا يتواصون عند خمود القريحة بالنظر إلى المياه الجارية ، والرياض الحالية .

ومعنى ذلك أنهم كانوا يفهمون أن النظر إلى جمال الوجود يوقظ العواطف ويُرهف الأحاسيس

وهذا يشرح السبب فى غرام العرب بافتتاح القصائد بالنسيب لأنهم كانوا يدركون أن تأثر الشاعر بأقوى مظاهر الطبيعة وهو الجمال يوجه إحساسهم إلى مختلف الأغراض

ومَثَل الشاعر فى ذلك مَثَل المغنّى . فالمغنى يجلس فى هدوء ثم تصدح حوله الموسيقا بأصوات مختلفات ، ويظل كذلك إلى أن يستيقظ ما كان غفا من أحلام القلب والروح فينطلق فى النشيد

وكذلك كان شعراء العرب : كانوا يهيمون بالرياض الحالية ، أو الديار الخالية ، أو المياه الجارية ، قبل أن يشرعوا فى نظم القصائد . فإذا أخذوا فى النظم بدأوا بالجوانب الدقيقة من ذوات أنفسهم وقلوبهم ليواجهوا الأغراض المنشودة وهم فى فَوْرة من طغيان العواطف وعنفوان الأحاسيس

ألا يشهد ذلك بأن شعراء العرب كانوا يدركون قيمة الطبيعة فى إذكاء الأرواح وإرهاف القلوب ؟

وهل فكر أحمد أمين فى شىء من ذلك ؟

هل خطر فى باله أن شعراء العرب فى الأعصر الخالية كانوا تعلقوا أشد التعلق بالسياحات والرحلات حتى صار من النادر أن يقر شاعر فى بلده إلى أن يموت ؟

قد يقال إن ذلك كان سعياً فى طلب الرزق

ونجيب بأن الشعراء كانت لهم غايات أعظم من طلب الرزق ، فقد كانوا يستأنسون بالبلاد والبحار والأنهار والجبال حتى ليمكن القول بأن دواوينهم فى بعض مناحيها تشبه الخرائط الجغرافية . وهل نسيتم قصيدة المتنبي فى شعب بوان ؟ هل نسيتم قصيدة البحترى فى إيوان كسرى ؟ هل نسيتم قصائد الأندلسيين فى أهرام مصر ؟ هل نسيتم قصائد الشريف الرضى فى أطلال الحيرة ؟ هل نسيتم قصيدة الأنطاكى فى ليالى الجزيرة والنيل ؟ هل نسيتم ألوف القصائد التى سجلت أهواء الشعراء فى الحنين إلى معاهد الأنس والوصال ؟

لقد هجر ابن زريق وطنه فى طلب الرزق ، فهل عرفتم كيف اكتوى بالتشوق إليه يوم مات ؟

إن الذى يحكم بأن شعراء العرب لم يحسوا الطبيعة ولم يتفننوا بأفانين الوجود لا يكون إلا رجلاً حرمه الله نعمة الفهم العميق لأسرار الشعر والبيان

لقد أراد الأستاذ أحمد أمين أن يحكم بأن الشعراء فى العصر الأموى والعباسى قلدوا شعراء الجاهلية فى وصف الرسوم والطلول

فهل نستطيع أن ندله على أن هيام أولئك الشعراء بوصف الرسوم الهوامد ، والطلول العافية ، ليس إلا تعلقاً بالطبيعة فى جانبها الباكى الحزين ؟

إن صديقنا أحمد أمين لم يفهم كيف وقف أبو نواس على الطلول بعد أن سخر ممن يقفون على الطلول وهو يرى ذلك رجعة إلى التقاليد الجاهلية . فهل يظن أن الطلول كانت انقرضت لعهد أبي نواس ولم يبق إلا العمران الباقى على الزمان ؟

فما رأيه إذا حدثته بأن صور الطلول لا تزال باقية إلى اليوم ؟

أشهد صادقاً أنى ما مررت بشارع الرملة فى مصر الجديدة إلا خفق القلب لرسم كان لى فيه صديق أضاعه القلم الجموح

أشهد صادقاً أنى أتلفت من حين إلى حين وأنا أخترق شوارع مصر الجديدة عسانى أرى الصديق الذى كنت أساير لحظات أو ساعات ونحن نتعقب بالنقد اللاذع أحوال الدنيا والناس

فكيف يكون حالى لو نظمت قصيدة فى التوجع لتلك الدار التى صارت رسماً بعد أن صنعتُ فى تجريح صاحبها ما صنعت ؟

وهل يمكن القول بأن ابن المعتز كان يقلد شعراء الجاهلية حين قال :

لا مثل منزلة الدويرة منزلٌ ... يا دار جادك وابل وسقاكِ
بؤساً لدهر غيرتكِ صروفه ... لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحل للعينين بعدك منظرٌ ... ذُمّ المنازل كلهن سواك
أى المعاهد منك أندب طيبهُ ... عمساك بالآصال أم مغداك
أم برد ظلك ذى الغصون وذى الجنى ... أم أرضك الميثاء أم رباكِ
وكأنما سُعطت مجامر عنبر ... أو فُتّ قار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباء أرضك جوهرٌ ... وكأن ماء الورد دمع ندالك
وكأن درعاً مفرغاً من فضة ... ماء الغدير جرت عليه صَباكِ

وقد ترجتُ هذه الأبيات إلى الفرنسية فى النسخة الفرنسية من كتاب النثر الفنى فعدّها الفرنسيون من أصدق ما تحدثت به القلوب

فهل يرى صديقنا أحمد أمين أن هذه القصيدة لا تمثل إحساس الشعراء بالوجود ؟

وهل يمكن الشك فى قول ابن سنان الخفاجى :

ولما وقفنا بالديار وعندنا ... مدامع نسديها لكم ونثيرها
شكونا إليها ما لقينا من الضنى ... فعرّفنا كيف السقام دثورها
وقد درست إلا أمارة ذاكر ... تلوح له بعد التمادى سطورها
خليلىّ قد عمّ الأسى وتقاسمتْ ... فنون البلى عشاق ليلى ودورها
فلا دار إلا دمنة ورسومها ... ولا نفس إلا لوعةٌ وزفيرها
لعمر الليالى ما حمدت قديمها ... فيوحشنى ذهابها ومرورها
وقالوا عطاء الدهر يبلى جديده ... ومن لى بدنيا لا يزول سرورها

فهذا شاعر لا يكتفى بأن يقول إنه يحسّ الطبيعة ، وإنما يؤكد أن الطبيعة توجعت لمن يهواه ، وذلك غاية الغايات فى الإحساس بالوجود

وكذلك صنع الشاعر الذى قال :

تعفو المنازل إن نأوا ... عنها وتقبرّ البلادُ
والحىُّ أولى بالبلى ... شوقاً إذا بلىَ الجمادُ

فمن الذى يستطيع أن يحكم بعد هذه الشواهد بأن شعراء العرب لم يحسوا معانى الوجود ؟ ومن الذى ينكر صدق اللوعة على ابن الخياط إذ يقول :

وقفت أدارى الوجد خوف مدامع ... تبيح من السر المصّنع ما أحمى
أغالب بالشك اليقين صبابةً ... وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم
فلما أبى إلا البكاء لِىَ الأسى ... بكيتُ فما أبقيتُ للرسم من رسم
كأنى بأجزاع النقيبة مُسْلِمٌ ... إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جُرم
لقد وجدت وجدى الديار بأهلها ... ولو لم تجد وجدى لما سقمت سقمى
عليهنّ وسمٌ للفراق وإنما ... علىّ له ما ليس للنار من وسم
وكم قسمٌ البين الضنى بين منزل ... وبينى ولكن الهوى جائر القسم
منازلُ أدراسٌ شجانى نحولها ... فهلاّ شجاها ناحل القلب والجسم ؟

فما رأى الأستاذ أحمد أمين فى هذا الشعر النفيس ؟ وهل خطر فى باله أن شعراء العرب لهم أمثال هذه المعانى ؟

أنا أخاطب رجلاً من أساتذة كلية الآداب ، ولولا ذلك لشرحت ما فى هذه القصيدة من شواهد الإحساس بقدرة الطبيعة على تذوق البؤس والنعيم

وهل اتفق لشاعر فى شرق أو فى غرب أن يصل إلى قول بعض الأعراب فى توديع نجد :

أقول لصاحبى والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريّا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجداً ... وأنت على زمانك غير زار
شهور يقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار

ولكن الأستاذ أحمد أمين قد يتهمنا بالتعصب للأدب العربى ويقول إننا ننظر إليه بعين المحب ، فهل يستطيع أن يدلنا على شاعر أوربى توجع لفراق النعيم فى وطنه مثل هذا التوجع ؟

إن العرب لم يسودوا من باب المصادفات ، وإنما سادوا لأن

لهم عبقرية ذاتية قضت بأن يسيطروا على العالم زمناً غير قليل . وقد دالت دولة العرب أكثر من عشرة قرون ، ومع ذلك بقيت سلطتهم الأدبية والروحية . فهم سادة لمئات من الملايين وإن لم يبق لهم عرش ولا تاج

وقد تحذلق المتحذلقون فقالوا إن الفقه الإسلامي صورة من الفقه الروماني ، فهل هذا صحيح يا بني آدم من أدعياء العلم بأصول الشرائع ؟

إن العرب سادوا بحق ، وقد تركوا ثروة أدبية وفلسفية وتشريعية لا يغض من قدرها إلا حاقد أو جهول

فمتى نرجع إلى أنفسنا لنبحث عن الميراث النبيل الذي ورثناه عن أسلافنا النبلاء ؟

لقد سمعتم وسمعنا كيف بغى الأسبانيون بعضهم على بعض ، وكيف فصل في تلك المعارك الدامية بعد نحو ثلاث سنين

فهل تذكرون أن أسلافنا صبروا على المعارك الأسبانية نحو ثمانية قرون ؟

وهل كان ذلك إلا لأنهم شعروا بأن الأندلس قطعةٌ من أرواحهم وقلوبهم ؟ فكيف نحكمون بأنهم لم يحسُّوا الطبيعة ولم يتشبثوا بالوجود ؟

إن العرب في أغلب أحوالهم عاشوا عيشة جافية قضتْ عليهم بأن يتلمسوا مساقط الغيث ، فكيف يقال إنهم لم يحسُّوا الطبيعة إلا بطريق سطحية ؟

أكتب هذا وأنا أعرف أن الأستاذ أحمد أمين سيهزّ كتفيه ويقول : « هذه خطابيات يراد بها اكتساب عواطف الجمهور ! »

إن قال ذلك فسأحيله على تاريخ يحيى بن طالب

فهل يعرف من هو يحيى بن طالب ؟

وكيف يجهله وهو يتصدر لتدريس الأدب العربي بكلية الآداب؟

إن يحيى بن طالب أحس الطبيعة وأحس الوجود إحساساً نادر المثال ، وهو وحده كاف للزكاة عن الأدب العربي ، وقد اتهمه من لم يعرفوه بأنه خالٍ من وصف مظاهر الطبيعة وأشكال الوجود

فهل تنتظر أن يظفر هذا الشاعر بفصل نفيس من « فصول » أحمد أمين ؟

لو كان صديقنا العزيز أحمد أمين قد اطلع على الأدب العربي لتذكر نخلتي حلوان في شعر مطيع بن إياس ، وكان لهما في حياة الخلفاء أحاديث يذكرها بالدمع من قرأ معجم البلدان . ولكن أين أحمد أمين من هذه الشؤون وهو مفتون بالحذلقة والإغ ... ؟

إن أحمد أمين لا يجني على الأدب العربي ، وإنما يجني على نفسه حين يزعم أن التشبيهات ليست إلا ألاعيب

ولو كان من أهل الخبرة بدقائق الأشياء لعرف أن التشبيهات من أصدق الشواهد على تعلق العرب بالطبيعة وبالوجود

ولن أشرح له هذا المعنى إلا يوم يعرف أن من واجب المرء أن يطلب العلم من المهد إلى اللحد . وقد تلوح فرصة قريبة فأشرح هذا المعنى لمن يهمهم أن يعرفوا كيف تغيب حقائق الأدب عن هذا « الأديب » وهل نكتم ما نعرف مكايدةً للصديق أحمد أمين ؟

* * *

لقد استطعنا بحول الله وقوته أن نبدد الشبهات التي أثارها حول الأدب العربي من يجهلونه كل الجهل أو بعض الجهل

فلنأخذ بعد ذلك في رفع التهمة عن الأدب الأندلسي ليعرف من لم يكن يعرف أنه خليق بأن ينصب له كرسي خاص في كلية الآداب .

والأمل كبير في أن يغفر الأستاذ أحمد أمين جنايتنا عليه حين أفهمناه أن في مصر ناساً يقرأون ويحكمون

فإن كان قد استمرأ العافية من سكوت النقاد بضع سنين فليعرف أن ذلك حلم تبدد ، ونعيم ضاع ، وعليه أن يستقبل المكاره بعزائم الرجال

والله وحده يعلم أني لم أرد بهذا النقد غير وجه الحق ، ومنه وحده أنتظر حسن الجزاء

« للحديث شجون »

زكي مبارك